al-Burhān

JOURNAL OF QUR'ĀN AND SUNNAH STUDIES

VOLUME 2, NUMBER 1, JUNE 2018

INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA

eISSN: 2600-8386

al-Burhān

Journal of Qur'ān and Sunnah Studies
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences

Volume 2 **1440/2018** **Issue No. 1**

Editor-in-Chief
Assoc. Prof. Dr. Ammar Fadzil

Assistant Editor
Asst. Prof. Dr. Nadzrah Ahmad

Managing Editor
Mardhiah Binti Ahmad Sahimi

Editorial Board
Prof. Dr. Mohammed Abullais Shamsuddin
Assoc. Prof. Dr. Radwan Jamal Yousef Elatrash
Assoc. Prof. Dr. Noor Mohammad Osmani
Assoc. Prof. Dr. Spahic Omer
Asst. Prof. Dr. Muhammad Adli Musa
Asst. Prof. Dr. Khairil Husaini Jamil
Asst. Prof. Dr. Mohd Shah Jani
Asst. Prof. Dr. Sofiah Samsudin

Advisory Board

Prof. Dr. Muhammad A. S. Abdel Haleem, University of London
Prof. Dato' Dr. Mohd Yakub @ Zulkifli Bin Mohd Yusoff, Malaysia
Prof. Dr. Awad Alkhalaf, UAE

© 2017 IIUM Press, International Islamic University Malaysia. All rights reserved.

ISSN 2600-8386

Correspondence
Managing Editor, *al-Burhān*
IIUM Journal of Qur'an and Sunnah Studies
International Islamic University, Malaysia
P.O Box 10, 50728 Jalan Gombak,
Kuala Lumpur, Malaysia
Tel: (603) 6196-5531
E-mail: alburhan@iium.edu.my
Website: http://journals.iium.edu.my/al-burhan

Published by:
IIUM Press, International Islamic University, Malaysia
International Islamic University, Malaysia
P.O Box 10, 50728 Jalan Gombak,
Kuala Lumpur, Malaysia
Tel: (603) 6196-5014, Fax: (603) 6196-6298
Website: http://iiumpress.iium.edu.my/bookshop

AL-BURHAN, 2:1 (2018) 110 - 126
Copyright © IIUM Press
eISSN 2600-8386

دور الشيطان في مسار الإنسان من خلال آيات قصّة آدم عليه السلام

The Role of Satan in the Pathway of Human in the Shade of the Story of Adam

حسام الدين مخلوف,* رضوان جمال الأطرش,**
Hussam Eddine Makhlouf

ملخص البحث: تناول هذا البحث بالدراسة والتحليل دور الشيطان في مسار الإنسان من خلال قصّة آدم عليه السلام. وتتجلى أهميّة هذا الموضوع في كونه يكشف عن المضامين الكبرى من حكمة خلق الإنسان وصلاحه، وتنبيهه على خطوات الشيطان في إغوائه، وترشيد مساره على الوجه المطلوب لعمارة الأرض والاستخلاف فيها. واعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في جمع الآيات القرآنيّة المتحدّثة عن إغواء الشيطان للإنسان، وتوبة آدم عليه السلام وذريّته، وما تعلّق بها من نصوص تفسيريّة، ومن ثم المنهج التحليلي لاستخلاص أهمّ مضامين إغواء الشيطان للإنسان وسبل النجاة منها. ومن أهمّ النتائج التي توصَّل إليها الباحث: أنَّ قصّة آدم عليه السلام قد رسمت معالم الطريق لابن آدم في حياته، وبيّنت له دور الشيطان في مساره، كما احتوت على محاور أساسيّة كثيرة تعتبر بمثابة الدليل للإنسان في رحلة سيره إلى الرحمن.

الكلمات المفتاحيّة: القرآن الكريم، الإنسان، الشيطان، قصّة آدم.

Abstract: This research deals with and analyses the role of Satan in the pathway of man in the shade of the story of Adam. The significance of this theme lies in its attempt to display the main implications underlying the rationale behind the creation of man and alerting him against the stages of temptations by Satan. It also attempts to guide man and entrust him with the maintenance and governance of the earth. The study uses inductive method in selecting the Qur´ānic verses and exegeses (interpretations) pertaining to the temptations of Satan and the recurrent repentance of man and his offspring. It uses analytical method to extrapolate the most important implications about the temptations of man by Satan, and how to avoid them. The researcher has concluded several results, the most important of which are: that the story of Adam has designed a life path for man and made apparent the role of Satan in hindering his way in life, that the results contain key guidelines that can serve as a guide and pathway for man in his journey to God.

Keywords: Qur´ān, Man, Satan, the story of Adam

* Student, Qur'ān and Sunnah Department, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). E-mail: habibhoussem7@gmail.com.

** Associate Professor, Qur'an and Sunnah Department, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM). E-mail: radwan@iium.edu.my.

مقدّمة:

سيتحدث الباحث في هذه الدراسة عن دور الشيطان في مسيرة الإنسان إلى الرحمن من منظور القرآن الكريم، ومن خلال قصة آدم عليه السلام، وتبيين امتدادها الواقعي في حياة بني آدم منذ بداية الخلق إلى قيام الساعة، وذلك كما يلي:

الإنسان الخليفة:

قال الله سبحانه وتعالى في بداية قصة آدم عليه السلام: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: 30]، فقد شرف المولى عز وجل الإنسان بأقدس مهمّة، حيث جعله خليفة له في الأرض، هذا الشرف العظيم الذي شهده الإنسان في محفل ملائكي عزز من قيمة هذا المخلوق الذي سيشكل فيما بعد القطب الوجودي في هذا الكون، وكان لهذا المظهر التشريفي آثارًا عميقة في تراتبية الوجود، ومخلوقاته، واكتسب هذا المخلوق بهذا التشريف الرباني ارتقاءً نوعيًا بين المخلوقات الأخرى، فكان بذلك العنصر الأهم الذي تقوم عليه المعادلة الوجوديّة، واستحق هذا المخلوق السجود الملائكي تكرمة له، ولعلمه، وجعل الله تعالى آدم عليه السلام الممثل الأول للإنسانيّة في حركة الاستخلاف، والتمكين في الأرض، ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: 30]، هذا ما أكدّه محمد باقر الصدر بقوله: "والخلافة التي تتحدّث عنها الآيات الشريفة المذكورة ليست استخلافًا لشخص آدم عليه السلام، بل للجنس البشري كلّه؛ لأنَّ من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء وفقًا لمخاوف الملائكة ليس آدم بالذات، بل الآدمية، والإنسانيّة على امتدادها التاريخي"[1].

بداية الصراع وأطرافه:

قد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الصراع بين الحق والباطل هو سنة الوجود لحكمة أرادها المولى عزّ وجلّ، فكانت قصة آدم عليه السلام تحمل مؤشرّات كبيرة على هذا الصراع بين أقطاب مختلفة، (الإنسان، الملائكة، الشيطان).

فأمّا الملائكة فتمثل خط الطاعة المطلقة لله رب العالمين، كما أكَّد القرآن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: 6].

[1] محمد باقر الصدر، **الإسلام يقود الحياة**، (طهران: وزارة الإرشاد الديني، ط2، 1403هـ)، ص133.

وأمّا الشيطان فيمثّل خطًا أصيلًا في الشرّ والمعصية.

ويبقى الإنسان بطبيعته المزدوجة التي خلقه الله ﷻ عليها يتردّد بين خط الطاعة، والمعصية، بنفخة الروح، وسِرّها السماوي يرتقي ليكون فوق الملائكة، وكلّما انغمس في الشهوات انحدر إلى رتبة الحيوانيّة، ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ [الفرقان: 44].

وإنَّ طبيعة الخلق المختلفة اقتضت أن يكون للملائكة خصائصهم، ويقتصر دورهم ضمن الوظائف التي أناطهم الله ﷻ بها في إدارة النظام الكوني، في حين أنَّ الإنسان كلفه الله تعالى بعهد الاستخلاف، وعمارة الأرض، وبنائها، وتنمية عناصر الحياة في هذا الكون، الذي سخره الله ﷻ لهذا المخلوق المستخلف من أجل تحقيق إرادة الله تعالى في الأرض، فجاء المشهد الرباني كما توضحه قصة آدم عليه السلام يكشف عن طبيعة هذا التكليف الإلهي: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، هذا الإنسان الذي يفسد، ويسفك الدماء، يختاره الله ﷻ ليكون نموذجًا لخلافة الأرض، إنّه سر من أسرار الله تعالى، يتجلّى في هذه الآية العظيمة التي خلق الله ﷻ عليها الإنسان، الذي بإمكانه أن يرتقي بالحياة، ويمارس الصلاح، ويحقّق إنجازات كبيرة في اكتشاف آيات الله ﷻ، وسننه الهادية في الآفاق، والأنفس، كما يحمل في الوقت ذاته إمكانية الإفساد، والخلود للأرض لما جبل عليه من نوازع، ودوافع فطريّة كثيرة، هذا الإنسان الذي استحق التكريم الإلهي، حيث توجه أمر الله تعالى للملائكة، وإبليس معًا بالسجود لآدم عليه السلام، فاستجابت الملائكة لأمر الله ﷻ ممتثلة طائعة، وانسجمت مع هذا الأمر الرباني، ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا**﴾ [الإسراء: 61]، ورفض إبليس السجود لآدم عليه السلام غرورًا، واستكبارًا في ذاته، ﴿**فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾[الإسراء:61]، معتقدًا أنّه أفضل من هذا المخلوق الجديد، نظرًا لأفضليّته العنصريّة، ولم ير من آدم سوى طبيعته الترابية التي استهجنها، ولم يلتفت لتلك النفخة العلويّة، وأسرارها العظيمة في هذا المخلوق الصغير، الذي انطوت فيه أسرار العالم كله، حيث انتصر في الملأ الأعلى بالعلم، وسر المعرفة، ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة:31]، يبرز محمد حسين فضل الله تداعيات هذا الرفض من إبليس بالسجود لآدم عليه السلام بقوله: "أما إبليس فإنَّ الأمر يختلف لديه، لأنّه لا يعيش هذا الجو الروحي إزاء أوامر الله ﷻ، ونواهيه، بل القضيّة عنده هي ما إذا كانت الطاعة لله ﷻ منسجمة مع ذاتيته، ونظرته إلى نفسه، أو غير منسجمة، وكان السجود لآدم لا يرضي غروره الذاتي، وشعوره بالاستعلاء أمام هذا المخلوق الجديد على أساس

عنصري... فما كان منه إلا أن تمَّرد، وأبى، واستكبر، وامتنع عن الطاعة"[2]. إنّه الاستكبار، ورفض الإذعان لأمر الله عز وجل: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: 12]، بل قال أكثر من ذلك: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: 62].

هنا تبدأ المعركة بين قطبين مختلفين (الإنسان، والشيطان)، بين من اختاره الحق ليكون خليفته في الأرض، وبين الشيطان الذي يمثل خط المعصية، وكأنَّ القرآن الكريم في قصة آدم عليه السلام يكشف عن طبيعة الصراع، والتدافع بين الحق، والباطل، وبين الإنسان، وعدوّه، منذ أن عهد الله عز وجل لآدم عليه السلام بالخلافة، ورفض إبليس الامتثال لأمر الخالق عز وجل، هذه المعركة التي تحتاج إلى عدّة، وزاد روحي، يجعل الإنسان يعتصم بحبل الله تعالى، ويلتزم الصراط القويم، وكلما استسلم لشهواته، ونزواته فتح الأبواب لعدوه كي يتمكن منه، ويجعله أداة من أدوات الإفساد في الأرض، كيف لا والشيطان قد توعّد ذريّة آدم عليه السلام بغوايتهم، وصدّهم عن الصراط المستقيم، ليعبر بذلك عن مكامن حقده الدفين لهذا الإنسان، ويتربص به في كل خطوة يخطوها، لعله ينتصر عليه في معركته مع الحق، فإنَّ آدم عليه السلام لم ينجح في اختبار التكليف الأول تحت وطأة الغواية الشيطانية عندما أكل من الشجرة المحظورة، ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة: 35-36]. يقول عكاشة عبد المنان الطيبي: "ربما كانت ترمز للمحظور الذي لابد منه في حياة الأرض... فبغير المحظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد، والتقيد بالشرط، فالإرادة هي مفترق الطريق، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل آدميين"[3].

البعد الواقعي في القصة:

تعكس هذه التجربة اختبار قدرات آدم عليه السلام، وثباته على الخط السلوكي، فتكون بمثابة المحفز الرئيس لذرية آدم من بعده، بغلق المنافذ أمام الشيطان، من خلال الالتزام بأوامر الحق، واتباع هديه تعالى، ومحاولة الثبات،

---

[2] محمد حسين فضل الله، **من وحي القرآن**، (بيروت: دار الملاك، ط2، 1998م)، ص239.

[3] عكاشة عبد المنان الطيبي، **الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب**، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ط، د.ت)، ص9.

ومقاومة نوازع النفس، ورغباتها العميقة، والتي كانت مدخلًا للشيطان في تزيينه المعصية لآدم عليه السلام، فكانت سببًا في إخراجه من الجنة، وهذه الأخيرة هي هدف ذرية آدم عليه السلام، ولهذا يكشف الله عز وجل اللثام على مخططات إبليس في صد آدم عليه السلام، وذريّته عن الجنة بقوله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: 27]، وما وقع فيه آدم عليه السلام هو درس عملّي لذريّته، حتى لا ينسوا عهد الله عز وجل، وأوامره، ولكي لا يستجيب المرء لنزواته، ورغباته، فقد كان الثمن باهضًا لآدم عليه السلام، وذريّته، وهو الهبوط إلى الأرض، ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة: 36]، وهنا ومع هذا الهبوط الآدمي تبدأ معركة الصراع بين الحق، والباطل، وبين الخير، ونوازع الشر، والضلال، والهدى، "وكان هذا إيذانًا بانطلاق المعركة في مجالها المقدّر لها بين الشيطان، والإنسان إلى آخر الزمان، ونهض آدم عليه السلام من عثرته، بما ركّب في فطرته، وأدركته رحمة ربه عز وجل، والتي تُدرك دائمًا عند التوبة، ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة:37]، وتمت كلمة الله عز وجل الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم عليه السلام، وذريّته، عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الصلاح فيها أو البوار"[4].

ولعلَّ المتأمل في تجربة آدم عليه السلام يدرك أنّها امتحان رباني من الله تعالى بهذا التكليف الذي عهد به لآدم عليه السلام، وهو في حد ذاته تدريب لهذا الإنسان على تجاوز المحن، والعقبات، وتحدي الشيطان، وسد المنافذ عليه، كما أنَّ هذه القصّة توحي بمؤشّر مهم، وهي التربية التي خضع لها آدم عليه السلام من قِبَل ربه عز وجل، لتحريك قواه النفسيّة، والروحيّة لمواجهة غواية الشيطان، نظرًا لما في هذه التجربة من ألم، وما أعقبها من ندم، وحسرة، لتجاوز أمر الله تعالى، وعصيانه، ولكنّها بالمقابل كشفت عن هذا العدو، وأساليبه، ومداخله، وفي هذا تعليم لذرية آدم عليه السلام، كما فتحت منافذ التوبة التي تتجلّى من خلالها رحمة الله تعالى بخلقه كلّما ارتكس الإنسان، وضعف أمام شهوات الدنيا، وملذاتها، وتزيين الشيطان لها، فقد فتحت بابًا جديدًا لهذا المخلوق ليعود إلى الله تعالى، ويثوب إلى رشده، هذا الذي لم يحدث مع الشيطان، وبقي مستمرًا في استكباره، وحقده على آدم عليه السلام، وذريته، ولم يتب في حضرة ربه عز وجل على ما اقترفه من ذنوب، وهنا تحدث المفارقة بين الإنسان، والشيطان، فما يمتلكه هذا المخلوق من قدرات، وطاقات، وعلم، تمكّنه من معرفة الحق عز وجل، والعودة إليه، تنعدم عند الشيطان الذي لا يفكّر سوى في المعصية، وتزيينها للناس، من أجل إبعادهم، وإجلائهم عن

[4] عكاشة عبد المنان الطيبي، **الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب**، ص9.

الطريق المستقيم، ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحجر: 39]، وعلى هذا فقد كانت فتنة إبليس على حد تعبير عائشة عبد الرحمن: "أثرًا لوقع النبأ الجديد على الطور السابق لآدم عليه السلام، والذي لم يتهيّأ لغير الطاعة، والتسخير، كما كان إصراره على المعصية إيذانًا بالصراع المحتوم بين الخير، والشر، وتبيانًا للهوّة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة، والتسخير التام، وبين ما ينذر به من إمعان في التمرّد، والانحراف إلى الشر، والضلال"[5].

ومن هنا فإنَّ الآدميّة ليست هي الملائكيّة، ولا الإبليسيّة، كما أنّها ليست جبريّة التسليم، والطاعة، والتسخير، ولا هي بالمقابل محض الشر، والشهوة، والتمرّد، والإصرار على الضلال، وإنما هي تحقيق للذات عن تمييز، ووعي، وإرادة[6]. إنّها تجربة استخلافيّة يتخللها الابتلاء، والمحن، ويتعرّض فيها الإنسان لشتى صنوف المغريات، وتتقاذفه الدوافع، والنوازع المختلفة بين الطاعة، والمعصية، ومن ثم فهي ليست سوى معركة متصلة يتدافع فيها الحق والباطل، والخير والشر، والضلال والهدى، ويتحمّل فيها الإنسان كامل المسؤوليّة التاريخيّة، والإيمانيّة على هذا المسار الحافل بالإنجازات الدنيويّة، والتطوّر في الحياة، وما فيه أيضًا من انحرافات عن النهج القويم؛ لأنَّ من سنن الله تعالى أن يكون أمام اختبارات الحياة فتن، وشرور، وأشواك على هذا الطريق، وإلّا كيف تمتحن قدرات الإنسان، وإرادته على الاختيار، وكيف يصقل معدنه، لتظهر ثمرة صلاحه، وطاعته من عدمها، وهذا يعود أصلاً إلى الطبيعة التي خلق الإنسان عليها، وما يتخللها من ضعف، ونسيان، وما يعتريها من الخطأ، إنّه الابتلاء بالشر، والخير فتنة. وهذا التكليف في حد ذاته هو تعظيم لعنصر الإرادة الإنسانيّة في اختيار الطريق السليم في الحياة، وهي أساس التكليف، وبهذا يرتفع الإنسان على الملائكة؛ لأنَّ طاعته نابعة عن اختياره، وتحكيم إرادته، والخضوع لله تعالى، ورفض الباطل، والاستعلاء عليه، وبالمقابل أيضًا فقد ركبت في هذا المخلوق الكثير من الشهوات، وزينت له، مما يعني إمكانية الهبوط، وارتكاب الآثام، عندما تغلب هذه الشهوات الإرادة الواعية، والمسؤولة.

وهكذا يظهر لنا من خلال مشهد آيات قصة آدم عليه السلام أنَّ هناك ثلاثة نماذج من خلق الله تعالى:

نموذج الطاعة المطلقة: وهذا يمثله ملائكة الرحمن.

ونموذج المعصية والباطل: ويمثله الشيطان بإغوائه لبني الإنسان.

ونموذج ابن آدم: الذي يتردد بين الخير والشر، والطاعة والمعصية.

---

[5] عائشة عبد الرحمن، **القرآن وقضايا الإنسان**، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، د.ت)، ص36.

[6] انظر: عائشة عبد الرحمن، **القرآن وقضايا الإنسان**، ص36.

وقد تحدّدت مواقفهم من تكليف الإنسان بالخلافة من خلال التباين الواضح بين الملائكة التي خضعت للأمر الإلهي بالتسليم، وأعلنت عجزها عن فهم حكمته ﷻ: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: 32]، وبين إبليس الذي استعلى بذاته، واستكبر عن الحق، ورفض الخضوع للأمر الإلهي، والسجود لآدم ﷺ، يقول عكاشة عبد المنان الطيبي: "لقد جعل إبليس له رأيًا مع النص، وجعل لنفسه حقًا في أن يحكّم نفسه وفق ما يرى هو، من سبب، وعلة، مع وجود الأمر... وحين يوجد النص القاطع، والأمر الجازم ينقطع النظر، ويبطل التفكّر، وتتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ، وهذا إبليس لعنه الله لم يكن ينقصه أن يعلم أنَّ الله ﷻ هو الخالق المالك الرازق المدبّر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلاّ بإذنه، وقدرته، ولكنّه لم يطع الأمر كما صدر إليه، ولم ينفّذه... بمنطق من عند نفسه: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ [الأعراف: 12]، فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه، ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ [الأعراف: 13]"[7].

وهكذا حقّت اللعنة على إبليس، وطرد من الجنة ومن رحمة الله ﷻ، بسبب معصيته لأمر الله ﷻ، ورفضه السجود لآدم ﷺ، مما جعل حقده الدفين يتزايد على ذرية آدم ﷺ؛ لأنّه كان سببًا في طرده مما كان فيه، ولكي يؤدي دوره في الإغواء، ويواصل مسيرة الشر في الحياة يطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم القيامة: ﴿**قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[الأعراف: 14]، هذا الطلب يفصح عن الحقد الدفين لآدم، وذريّته، ويكشف عن مكامن الشر المتجذّرة فيه، حتى يترصّد مسيرة هذا الإنسان، ويحاول الإيقاع به في المهالك، والذنوب، ويبعده عن الصراط المستقيم، ويحول بينهم، وبين الجنة التي كان سببًا في إخراج أبويهما منها. فكانت الحياة الدنيا مسرحًا لهذا التدافع بين الحق، والباطل، من خلال هذه الثنائية، فدور إبليس، وجنده هو الإغواء، والصد عن سبيل الله تعالى، ومحاولة إبعاد الإنسان عن دوره النيابي الذي أنيط به من استخلاف، وعبادة، وعمارة، وقلب المعادلة عليه من تعمير إلى تخريب، ومن إصلاح إلى إفساد، ومن عبادة الرحمن إلى عبادة الشيطان.

وكأنَّ القرآن الكريم وهو يستعرض جوانبًا مهمّة من قصّة آدم ﷺ، يريد أن يُعلِّم الإنسان كيف يتحكّم في رغباته، ونزواته، ويتجاوز نقاط ضعفه، ومداخل الشيطان عليه، حتى يفلح في معركة الحياة، ولا يترك للشيطان مجالًا ليداعب هذه الرغائب، ويتلاعب به من خلال هذه الشهوات، والتي تجعله يفقد توازنه،

[7] عكاشة عبد المنان الطيبي، **الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب**، ص19.

وينزل إلى درك الحيوانيّة، ولهذا جعل الله تعالى الوحي لضبط مسار الإنسان حتى لا يعاني من التخبط، ويتيه في أودية الباطل، وكأنَّ القرآن الكريم يوضّح لهذا الإنسان مكائد الشيطان، ويفضح أساليبه في غواية الإنسان، وهو يرسم صورة واضحة عن طبيعة هذا المخلوق، ليحذّر الإنسان من مغبّات الطريق في السير إلى الله تعالى؛ لأنَّ سقوط آدم عليه السلام وزوجه في هذا الاختبار كان الهدف منه تربية هذا الإنسان، وتدريبه على معرفة طبيعة ذاته، بأنّه قد خلق، وفيه جوانب الضعف، والغفلة، والنسيان، والكثير من الدوافع التي فطر عليها، مما يعني أنّه معرّض لوسوسة الشيطان، وغوايته إن لم يلتزم بمنهج ربه عزّ وجلّ، وقواعده، ويقوّي عزيمته، وإرادته، ليتوازن في مطالبه الروحيّة، والجسميّة، والنفسيّة، ويحقّق الاعتدال المطلوب الذي لا يخرجه عن طبيعته، فلا هو ملك كريم، ولا هو حيوان بهيم.

خطوات الشيطان كما صورها القرآن:

قد رصد القرآن الكريم ضمن سلسلة من الآيات الكريمة خطوات الشيطان، ومداخله على بني آدم، وجلَّى هذا الدور الذي يقوم به في محاولة الإيقاع بالإنسان في الخطأ، والسقوط في حبال المعصية، "وهي خطوات تكاد تكون مترابطة، ومتداخلة إلى حد بعيد، وعليه فإنَّ طريق الشيطان لا يبدأ بتقليده في عمل ما، أو اتباعه في أثر ما، بل هي سلسلة تبدأ بالوسوسة، فالتسويل، والتزيين، بالتحسين تارةً، والتخويف أخرى، وبالتمنية مرة، والتسويف أخرى، ثم تتوالى الخطوات حتى يحصل الزلل فيقع الإنسان في المعصية"[8]، وإنَّ الوقوف على هذا التعبير القرآني بمعنى دقيق يعني بأنّه: "المراحل الشيطانية الموقعة في المعصية، بدءً ببواعث تلك المعصية، ودواعيها في النفس، مرورًا بارتكابها، واكتساب الإثم، ثم انتهاءً بكون تلك المعصية مفتاحًا لما يتلوها من معاصٍ تنتهي إلى غاية الشيطان الكبرى، وهي إيقاع الناس في الكفر والموت على ذلك"[9].

وتتجلى أهم هذه الخطوات، والتي تمثل الدور الشيطاني الخطير فيما يلي:

أولًا: تزيين الباطل، وتحسينه في النفس الإنسانيّة:

حيث استعمل القرآن الكريم لفظ التزيين، والتسويل كدلالة واضحة على إحدى خطوات الشيطان، ودوره الفاعل في تزيين المعصية للإنسان، ويتجلّى ذلك في قوله تعالى عن إبليس: ﴿**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**

[8] عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، **خطوات الشيطان**، (مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، العدد الأول، 2008م)، ص143-144.

[9] عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، **خطوات الشيطان**، ص145.

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39]، "نسب الله تعالى التّزيين في مواضع إلى نفسه، وفي مواضع إلى الشيطان، وفي مواضع ذَكَرَهُ غير مسمّى فاعله، فممّا نسبه إلى الشيطان قوله: ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾** [الأنفال: 48]، وقوله تعالى: ﴿**لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** [الحجر: 39]"[10].

والتسويل مثل التزيين، فهو من قولهم: "سَوَّلْتُ لَهُ الشَّيْءَ، إِذَا زَيَّنْتَهُ لَهُ"[11]. فكلا الكلمتين (التزيين، والتسويل) تتفقان على معنى واحد، وهو تحسين المعصية، وتسهيلها لفاعلها... وورد التسويل مرتبطًا بالشيطان مرة واحدة في كتاب الله، وذلك في قوله ﷻ: ﴿**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾** [محمد: 25][12]. وقد فسَّر الطاهر ابن عاشور معنى التسويل بقوله: "والتَّسْوِيلُ: تَسهِيلُ الأمرِ الّذي يُسْتَشْعَرُ منه صُعوبةٌ أو ضُرٌّ، وتَزيِينُ ما ليس بحَسَنٍ"[13]. فمن مكائده: "أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب، وبين الإسلام، والإيمان، والإحسان؟ وكم جلَّى الباطل، وأبرزه فى صورة مستحسنة، وشنع الحق، وأخرجه فى صورة مستهجنة.... فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم"[14].

وقد ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة نماذج من تزيين الشيطان الكفر، والضلال للعباد، وصدّهم عن الحق، وهذا ما يتجلّى في سورة النحل التي أقسم الحق فيها على دور الشيطان في إضلال الناس، وصدّهم عن السبيل، قال ﷻ: ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [النحل: 63]، يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "فحسَّن لهم الشيطان ما كانوا عليه من الكفر بالله ﷻ، وعبادة الأوثان مقيمين، حتى كذّبوا رسلهم، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم ﴿**فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾**، يقول: فالشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وبئس الناصر، ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

---

[10] أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق: دار القلم، ط1، 1412هـ)، ص389.

[11] أبو الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، (لبنان: دار الفكر، د.ط، 1979م)، ج3، ص118.

[12] انظر: عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير، **خطوات الشيطان**، ص146.

[13] محمد الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط، 1984م)، ج26، ص116.

[14] محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، (الرياض: مكتبة المعارف، د.ط، د.ت)، ج1، ص110.

في الآخرة عند ورودهم على ربهم، فلا ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان، ولا هي نفعتهم في الدنيا، بل ضرّتهم فيها"[15].

ثانيًا: تنسية الشيطان الإنسان لأوامر الله تعالى، وصرفه عنها:

وهذه من أهمّ خطواته ومكائده، حيث يعمد الشيطان إلى تنسية الإنسان أوامر الحق ﷻ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، قصد صرفه عن طاعته، وصدق الله إذ يقول: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المجادلة: 19]، يقول الطاهر ابن عاشور عن هذه الآية: "أنّه اسْتِحْوَاذُ الشَّيْطَانِ عليهم، وامْتِلَاكُهُ زِمامَ أَنْفُسِهِمْ يُصَرِّفُهَا كيف يُرِيدُ وهَلْ يَرْضَى الشَّيْطَانُ إلّا بِأَشَدِّ الْفَسَادِ، وَالْغِوَايَةِ. والِاسْتِحْوَاذُ: الِاسْتِيلَاءُ، وَالْغَلَبُ، وهو اسْتِفْعَالٌ مِن حَاذَ حَوْذًا، إذا حَاطَ شَيْئًا وَصَرَّفَهُ كيف يريد... المعنى أنّه أَنْسَاهُمْ توحيدَ اللّهِ بكلمةِ الشَّهَادَةِ، والتَّوَجُّهِ إليه بالعِبادةِ. والَّذي لا يتذَكَّرُ شَيْئًا، لا يتوَجَّهُ إلى واجِبَاتِهِ... اسْتَحْوَذَ عليهم الشَّيطانُ فإنّ الِاسْتِحْوَاذَ يَقتَضِي أنّه صَيَّرَهُم مِن أَتْبَاعِهِ"[16]. وإنّ النسيان يؤدّي إلى الغفلة التي نهى الله ﷻ عنها في كثير من آياته، وفي هذا تحذير من الله تعالى لسد منافذ الشيطان، حتى لا يدخل على الإنسان من هذا الباب، وحتى يكون حذرًا، ومتيقظًا، ولا يفوت عليه فرص الخير، وذلك بإلهاء العبد بأمور تبعده عن طاعة الله ﷻ، وذكره، وهذا نوع من الاستدراج حتى يوقعه في المهالك، وارتكاب المحظور الذي نهى الله ﷻ عنه، لأنّه كل ما ابتعد القلب عن الحق، كلما سهلت مهمة الشيطان على اصطياده، والعبث به، وقد ضرب القرآن الكريم الكثير من الأمثلة التي تحذّر من مكائد الشيطان، ومنها النسيان، قال ﷻ: ﴿**وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾ [الكهف: 63].

ثالثًا: الإغواء[17]:

حيث يسعى الشيطان إلى إغواء الإنسان، وإغرائه بشتى الطرق والوسائل ليجعل بينه، وبين الله تعالى سياجًا يمنع العبد من الاقتراب من الله ﷻ، والثبات على منهجه، بل يعمل على الحيلولة دون تحقيق الإنسان لهذا الهدف، الذي يجعل من دنيا المسلم مزرعة للحياة الآخرة، فيعمد إلى فتح جميع أبواب الدنيا، وتزيين شهواتها

---

[15] محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (د.م: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م)، ج17، ص236.

[16] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج28، ص54.

[17] يقول ابن فارس: "الغين والواو والحرف المعتلّ بعدهما أصلانِ: أحدهما يدلُّ على خِلاف الرُّشد وإظلام الأَمْر، والآخرُ على فسادٍ في شيء. فالأوَّل الغَيّ، وهو خلاف الرُّشد، والجَهلُ بالأمر، والانهماكُ في الباطل...". انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج4، ص399.

لهذا الإنسان، حتى يتعلّق بها قلبه، وتصبح هي هدفه الأساس في جميع رغائبه، ومختلف نشاطاته، وكأنّها هي الخلود، وهذا العمل من أخطر ما يُمَنِّي به الشيطانُ الإنسانَ حتى يحول بينه وبين الآخرة، إنّه يُمَنِّي الإنسان بالخلود، ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى**﴾ [طه: 120]، وغيرها من الخدع، والأماني الكاذبة التي تجعل الإنسان يخسر عمره في متع الدنيا الفانية، ويغفل عن التكليف الرباني، وما خلق من أجله، وهو عبادة الله ﷻ، وقد فتح الشيطان باب الدنيا، والمنافسة فيها على كثير من الخلق، فأوقعهم في شباكها، وباتت هي الملاذ والمأمن للكثير من الناس، وتعلّقت بها قلوبهم حتى نسوا الله ﷻ فأنساهم ذكره، وكأنّهم سيعمّرون فيها دهرًا كاملًا حتى يباغتهم الموت على حين غفلة، ولا يستفيقوا إلا على عتبة النهاية، ومواجهة المصير الحقيقي بين يديه ﷻ، كيف لا وقد صرفوا العمر في متع الدنيا الفانية، وزهدوا في الآخرة، إنّها الأمانيُّ، والمغريات التي تعلّقوا بها فسجنوا أنفسهم في شهوات الدنيا، وملذّاتها، ومدّ لهم الشيطان في ذلك، ووسّع لهم دائرة هذه الأماني، فأعاقهم عن النظر في عواقب حياتهم، والتبصّر في مسار أفعالهم.

تجلّيات التوبة في قصة آدم عليه السلام

تعتبر التوبة تجليًا عظيمًا من تجليات رحمة الله تعالى بعباده؛ لأنّها تفتح الباب أمام الإنسان ليجدد علاقته مع الله ﷻ، ويفتح منافذ جديدة للطاعة، والتزام أمر الخالق ﷻ، واجتناب نواهيه، ولأنَّ الله سبحانه هو الذي خلق هذا الإنسان بهذه الطبيعة المزدوجة، القابلة للارتقاء، والصعود في امتثال قيم الحق ﷻ، وأيضًا إمكانيّة النزول، وارتكاب الذنوب، والمعاصي، والخروج على منهج الله تعالى، وهنا تكمن الخطورة، في الضعف الذي قد يصيبه في ارتكاب الأخطاء، والانحراف عن السبيل القويم، ولهذا جاء تشريع التوبة مراعاة لطبيعة هذا الضعف الذي قد يكتنف الإنسان، ومن ثم إعادته إلى توازنه، وإلى التزام الطاعة، والاستقامة على الطريق، فكانت بذلك ضوءًا في طريق الحياة، تنير درب الغافل، وتوقظ الإحساس الإنساني، وتهز الضمير حتى يعود للرشد المطلوب، وبالمقابل فإن طلب آدم عليه السلام لهذه التوبة لما سقط في اختبار التكليف، يعتبر بمثابة قدرة الإنسان على العودة إلى الوضع الإيجابي، والتلقي عن الله ﷻ، والعودة إلى تجديد العهد معه، وإعلان الطاعة من جديد كلّما ارتكس في أوحال المعصية أو الذنب، وهذا في حدّ ذاته يعتبر همسة في ضمير هذا المخلوق حتى ينظر في مسار الطريق من جديد، إنّها تحوّل كبير في الكيان الإنساني، وهو ينتفض من المعصية، والذنوب التي تقيّد خطواته، وتعيقه على التواصل الروحي مع الحق ﷻ، وبهذا فإنّ إعلان الإنسان في أعماق الضمير، والنفس عن معاني التوبة لهي انتصار له على نفسه الأمارة بالسوء أولًا، وعلى الشيطان، ووسوسته،

وتزيينه، وإغوائه ثانيًا، كما أنّها تعتبر بمثابة طاقة إيجابية تحرر الإنسان من أي طاقة سلبية قد تدمر الكيان الإنساني، وتزري به إلى درك الحيوانية، بل تمنح الإنسان الضوء الأخضر في العودة إلى الحياة، والتصالح مع الله ﷻ، والنفس، والخلق جميعًا، والتفاعل الإيجابي مع مقتضيات المنهج الرباني، ليكوّن بذلك الاعتراف بالذنب نقطة جوهريّة في مسار هذا التحول، وأول مؤشر على العودة إلى رحاب الله ﷻ، وطاعته، والتعبير عن سلامة المجال الداخلي للإنسان، بعد التحرر من أثقال الذنب، وأوزاره، وما يعقبه من ندم، وحياء على هذا السقوط، والعزم على تصحيح الأخطاء، والرجوع إلى الله ﷻ، ولهذا كانت كلمات آدم عليه السلام بعد السقوط في هذا الإغراء الشيطاني، بمثابة المفتاح الأول للإنسانية جميعًا، حتى تجدد طريقها، وتعود إلى الله ﷻ، وتعلن باختيارها، وإرادتها العودة إلى رحاب الطاعة، والتفيؤ في ظلالها من جديد، بل كانت كلمات آدم عليه السلام بمثابة الصفعة الأولى لإبليس، وجنده، حيث أنَّ هذا الكائن الجديد فيه من القدرات، والإمكانات التي تؤهله للعودة إلى الله ﷻ، والنظر في الخطأ، وتصحيحه بعرضه على الحق، وإظهار الندم على هذا الانحراف، والاستسلام لهذه الغوايات الشيطانية التي تعترض سبيل ابن آدم في الحياة، لأنَّ الإنسان لم يخلق ليكون ملَكًا معصومًا لا يخطئ، فقد قال رسول الله ﷺ: "كل بني آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوابون"[18]، فالإنسان لا يحيا في أفق الملائكة بنفس التسبيح والتقديس، وإنما خلق ليمارس دوره في الخلافة، وعمارة الأرض، وبناء الحياة، ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾ [الانشقاق: 6].

لقد فتح آدم عليه السلام بتوبته بابًا جديدًا للإنسان كلّما انحرف عن السبيل القويم، يجب أن لا يقنط من رحمة الله تعالى، لذا جاء تشريع التوبة نقطة مهمّة في مسار آدم عليه السلام، وذريّته، وقد أحدثت فاصلًا قويًا بينه وبين الشيطان الرجيم الذي رفض الاعتراف بالذنب، بل تمرّد على الحق، وأصرّ على المعصية، وهو يرد الأمر على الله الذي أمره بقوله: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾ (الأعراف: 12)، ثم قال: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء: 62)، وأما آدم عليه السلام فقد تاب إلى الله ﷻ، فقد وصف الله ﷻ حالته، ومقولته، وتوبته بقوله: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (الأعراف: 23)، وقال عنه أيضًا: ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (البقرة: 37)، يقول ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: "جاء بالفاءِ إِيذَانًا بِمُبَادَرَةِ آدَمَ عليه السلام بطَلَبِ العَفْوِ. وَالتَّلَقِّي استقبالُ إِكرامٍ ومَسَرَّةٍ...

[18] رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك ﷺ في **سننه**، انظر: سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ج2، ص1420، رقم الحديث: 4251. وقال الألباني: حديث حسن.

فالتّعبيرُ بِتَلَقَّى هنا مُؤَذِنٌ بأنّ الكلماتِ الّتي أخذها آدمُ عليه السلام كلماتٌ نافعةٌ له فعلم أنّها ليست كلماتِ زَجْرٍ، وتوبيخٍ، بل كلماتُ عَفْو، ومغفرة، ورضى، وهي إمّا كلماتٌ لُقِّنَهَا آدَمُ عليه السلام من قِبلِ اللّه تعالى، لِيَقُولَهَا طَالِبًا الْمَغْفِرَةَ، وإمّا كَلِماتُ إِعْلَامٍ من اللّه ﷻ إِيَّاهُ بأنّه عفا عنهُ"[19].

مفهوم التوبة من خلال قصة آدم عليه السلام:

حقيقة التوبة على حد تعبير ابن قيم الجوزية هي: "النَّدَمُ على ما سَلَفَ منه في الماضي، والإِقلاعُ عنه في الحالِ، والعَزمُ على أن لا يُعَاوِدَهُ في المستقبلِ، والثّلاثةُ تَجتَمِعُ في الوَقْتِ الّذي تقعُ فيه التَّوْبةُ، فإنّهُ في ذلك الوقتِ يَنْدَمُ، ويُقْلِعُ، ويَعْزِمُ، فحِينَئِذٍ يرجِعُ إلى الْعُبُودِيَّة الّتي خُلِقَ لها، وهذا الرُّجوعُ هو حقيقةُ التَّوبةِ، ولما كان مُتَوَقِّفًا على تلك الثّلاثَةِ جُعِلَتْ شرَائِطَ له"[20].

وعليه فالتوبة تعتبر من الأصول المهمة في الإسلام، فهي تدعو كل المذنبين إلى العمل لإصلاح أنفسهم، والدخول في دائرة الرحمة الإلهيّة، والسعي لجبران ما مضى[21]. ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز مطبّات الطريق، وعثرات الحياة إلّا بالتوبة؛ لأنَّ الإنسان غالبًا ما يخطئ في طريقه إلى الله ﷻ، وإنَّ آدم عليه السلام لما زلَّت قدمه في المعصية الناتجة عن إغواء إبليس، لم يقف عند حدود الذنب، وإنما استنهض مكامن الروح، والضمير، حتى انفجرت أحاسيسه بالندم على هذه الخطيئة، ونسيان ميثاق الله ﷻ، وعهده، وأمره التكليفي، ثم جدد علاقته مع مولاه الحق من خلال الانتفاض من هذا الذنب، والعودة إلى رحمة الله تعالى، المتجلية في التوبة، والغفران الإلهي لآدم عليه السلام.

ويقول أبو حامد الغزالي: "ولقد قرع آدم عليه السلام سن الندم، وتندم على ما سبق منه، وتقدّم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة، فقد زلّت به القدم، بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين، والتجرّد للشر دون التلافي سجيّة الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميّين، فالمتجرّد للخير ملَك مقرب عند الملك الديّان، والمتجرّد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان، فقد

---

[19] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج1، ص437.

[20] محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، 1996م)، ص200.

[21] ناصر مكارم الشيرازي، **الأخلاق في القرآن**، (إيران: مدرسة الإمام علي، ط2، 1426هـ)، ص190.

ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيّتان، وكل عبد مصحّح نسبه إمّا إلى الملَك، أو إلى آدم عليه السلام، أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم عليه السلام بملازمة حد الإنسان"[22].

وهكذا يسجّل الإنسان ممثلًا في رمز الإنسانيّة آدم عليه السلام الانتصار على نفسه، وعلى الشيطان معًا، ولكنّه انتصار بالحق، وللحق، وهذا ينسجم مع طبيعة الإنسان، التي هي ليست خيرًا مطلقًا، فهذا دأب الملائكة، وليست شرًا مطلقًا، فهذا مسار الشيطان ودأبه، وبقي الإنسان بطبيعته، يتردّد بين الطاعة، والمعصية، ولكنّه كلّما سقط في الذنب، نهض من جديد وتاب إلى الله العزيز الحميد، وهذا هو طبع الآدميّة، ولهذا أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتوبة فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ (التحريم: 8)، وكذلك قال الأنبياء لأقوامهم، فقد قال هود عليه السلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ (هود: 52)، وقال صالح عليه السلام: ﴿**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**﴾ (هود: 61).

ويرى الشيرازي "أنَّ التوبة في الأصل هي الرجوع عن الذنب، هذا إذا ما نُسبت للمذنبين، ولكنَّ النصوص القرآنيّة، والأحاديث النبويّة تنسبها إلى البارئ تعالى، وعليه يصبح معناها الرجوع إلى الرحمة الإلهيّة، تلك الرحمة التي سلبت من الإنسان إثر ارتكابه للمعصية والذّنب، فبعد عودته لموقع العبوديّة، والعبادة، تمتدّ إليه الرحمة الإلهية من جديد، وبناءً عليه فإنَّ أحد أسماء الباري تعالى هو التواب"[23].

ومن هنا فإنَّ التوبة في مسار ابن آدم عليه السلام هي طريق لتنقية الأعماق، وتزكيتها، وتصويب أخطائها، إنّها بمثابة انقلاب روحي يهزّ النفس الإنسانيّة، ويحرّك الوجدان، والحسّ، والضمير، ليعود إلى رشده، ومساره الصحيح، ويتّخذ موقفًا جديدًا بإعادة برمجة أقواله، وأفعاله في ضوء منهج الله تعالى، وضوابطه التشريعيّة، والتزام أوامره، ونواهيه، ومدافعة هذا الباطل الذي يعتري النفس الإنسانيّة، إمّا بتزيين الشيطان، ووسوسته في صدور الناس، أو بمحاربة الشر من النفس، وجعلها ترتقي إلى درجة النفس المطمئنة، التي ترتقي لله تعالى قولًا وعملًا، ولهذا تصبح التوبة ضرورة شرعيّة وواقعيّة، تفرضها هذه الطبيعة الإنسانيّة، التي تتدافع فيها نوازع الشر والخير معًا. ومن الرشد إعادة تربية النفس على المحاسن، حتى يستقيم ظاهر الإنسان، وباطنه، ويستقيم معه التصوّر والقول والفعل على حدّ سواء. وإنَّ المتتبّع لحركات الأنبياء، والرسل، وهم صفوة الله عزّ وجلّ في الخلق، يجد أنَّ التوبة كانت تشكّل بُعدًا استراتيجيًا في دعواتهم إلى الله تعالى، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم**

---

[22] أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت)، ج4، ص2.

[23] ناصر الشيرازي، **الأخلاق في القرآن**، ص192.

مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

ويرى أبو حامد الغزالي بأنَّ التوبة: "عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل، فالعلم الأول، والحال الثاني، والفعل الثالث، وَالْأَوَّلُ مُوجِبٌ لِلثَّانِي، وَالثَّانِي مُوجِبٌ لِلثَّالِثِ، إِيجَابًا اقتضاه اطراد سُنَّةُ اللَّهِ ﷻ فِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ"[24].

أما العلم فيتمثّل "في معرفة عِظَم ضرر الذنوب، وكونها حجابًا بين العَبدِ، وبين كُلِّ مَحْبُوبٍ، فَإِذَا عَرَفَ ذلك مَعْرِفَةً مُحَقَّقَةً بِيَقِينٍ غَالِبٍ على قَلْبِهِ، ثَارَ من هذه المعرفةِ تَأَلُّمٌ لِلقلبِ، بسبب فَوَاتِ الْمَحْبُوبِ، فإنّ القَلبَ مهما شَعَرَ بفَوَاتِ مَحْبُوبِهِ تَأَلَّمَ، فإن كان فَوَاتُهُ بِفِعْلِهِ، تَأَسَّفَ على الْفِعْلِ الْمُفَوِّتِ، فيُسمّى تَأَلُّمُهُ بسبب فِعْلِهِ الْمُفَوِّتِ لِمَحْبُوبِهِ نَدَمًا، فإذا غَلَبَ هذا الْأَلَمُ على القلب واستولى، انبعث من هذا الْأَلَمِ فِي القَلبِ حَالَةٌ أُخْرَى، تُسَمَّى إِرَادَةً وَقَصْدًا إِلَى فِعْلٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بالحال، والماضي، وَبِالِاسْتِقْبَالِ.

وأما الحال: فيتعلّق بالتَّرْكِ لِلذَّنْبِ الَّذِي كَانَ مُلَابِسًا.

وَأَمَّا بِالِاسْتِقْبَالِ فَبِالْعَزْمِ عَلَى تَرْكِ الذَّنْبِ الْمُفَوِّتِ لِلْمَحْبُوبِ إِلَى آخِرِ الْعُمُرِ.

وَأَمَّا بالماضي فبتلا في ما فات بالجبر، والقضاء إن كان قابلاً للجبر"[25].

وإنَّ القرآن الكريم يؤكّد تأكيدًا واضحًا على حيويّة هذا المفهوم، وضرورته في الحياة، كمسلك عملي يصحّح به الإنسان مسار علاقته مع الخالق أولًا، ومع الخلق ثانيًا، إذ لا يكفي أن يتوب الإنسان بإقلاعه عن الذنب والندم والعزم على تصحيح الفعل، وإنّما يتجاوزه إلى الدخول، والانخراط في معركة البناء، والعمل الصالح، وتشييع الخير، والصلاح على مستوى الحياة، والانفتاح على العمل بطاقة إيجابيّة، لدفع المضارّ وجميع المفسدات من طريق الإنسان، ومواجهة هذا الباطل في الذات والمجتمع، من أجل المساهمة الفعليّة في تطوير الواقع الذاتي، واقتلاع جذور الفساد واستئصالها من الأنفس، ليصبح المرء بهذه التوبة عضوًا ناجحًا، وصالحًا في تطوير الحياة وبنائها، ومن هنا نقف على أنَّ أبعاد التوبة في التصوّر القرآني تمتد إلى أن تحرّر الإنسان من الأخطاء، وتحرّره من الآثام، وتفتح أمامه الآفاق ليكون عضوًا صالحًا في المجتمع، ولا ينكفئ المرء على ذاته، ويعيش تحت ويلات الندم والحسرة. وليست التوبة هي محو آثار الذنوب من النفس فحسب، بل تتجاوز ذات

---

[24] أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص3.

[25] أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص3.

الإنسان لتطهر الحياة من هذا الفساد الذي يضرب المجتمع، ويهدّد سلامته، وبهذا يكون الإنسان صالحًا ومصلحًا، وجديرًا بعمارة الأرض، وأهلًا لمنصب الخلافة، فيحظى بسعادة الدارين، ورضى رب العالمين.

الخاتمة:

تشتمل الخاتمة على أهمّ النتائج التي توصّل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة المتواضعة حول دور الشيطان في مسار الإنسان من خلال قصّة آدم عليه السلام، منها:

1. تبيَّن للباحث أنَّ خلافة الإنسان في الأرض تكليف وتشريف، غايتها تحقيق العبوديّة للرحمن، وتفعيل الشهود الحضاري في الأرض بالعمران، وأنَّ حركة المستخلف وظيفة تعبديّة لا تستقيم إلاَّ على وفق الهدي الرباني.
2. إنَّ الصراع بين الحقّ والباطل سنةٌ كونيةٌ واقعيّةٌ ممتدّةٌ من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، وقد كانت تجربة آدم عليه السلام مع إبليس درسًا نظريًّا، وتدريبًا عمليًّا للإنسان في كل زمان ومكان.
3. إنَّ لإبليس اللعين دورٌ في حياة بني آدم عليه السلام، يكمن في محاولة إغوائهم وتزيين السوء والباطل لهم، وصدّهم عن الصراط المستقيم، متّبعاً في ذلك خطوات خاصّة، وطرقاً كثيرة ومتنوّعة.
4. إنَّ آدم عليه السلام أوَّل إنسان تائب إلى الله عز وجل، وأنَّ التوبة مظهر من مظاهر تجليّات رحمة الله عز وجل ببني آدم عليه السلام، إذا ما انحرفوا عن السبيل القويم، لِتُعيدَهم مجدَّدًا إلى الطريق المستقيم، وقد شُرِعت مراعاة للطبيعة الإنسانيّة، ولضرورة إعادة التوازن في حياة المسلم الواقعيّة.

المراجع

القرآن الكريم

ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير** (تونس: الدار التونسيّة للنشر، د.ط. 1984م).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر شمس الدين. **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** (الرياض: مكتبة المعارف، د.ط، د.ت).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر شمس الدين. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3.، 1996م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجه** (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).

أبو الحسين، أحمد بن فارس. **معجم مقاييس اللغة** (لبنان: دار الفكر، د.ط، 1979م).

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب. **المفردات في غريب القرآن** (دمشق: دار القلم، ط1، 1412هـ).

بنت شاطئ، عائشة عبد الرحمن. **القرآن وقضايا الإنسان** (القاهرة: دار المعارف، د.ط، د.ت).

الشيرازي، ناصر مكارم. **الأخلاق في القرآن** (إيران: مدرسة الإمام علي، ط2، 1426هـ).

الطبري، محمد بن جرير. **جامع البيان في تأويل القرآن** (د.م: مؤسسة الرسالة، ط1، 2000م).

الطيبي، عكاشة عبد المنان. **الشيطان في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب** (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، د.ط، د.ت).

عبد السلام حمدان اللوح، وائل عمر بشير. **خطوات الشيطان** (مجلة الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، العدد الأول، 2008م).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين** (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت).

محمد باقر الصدر. **الإسلام يقود الحياة** (طهران: وزارة الإرشاد الديني، ط2، 1403هـ).

محمد حسين فضل الله. **من وحي القرآن** (بيروت: دار الملاك، ط2، 1998م).